سينما

الأرشيف والذاكرة في خدمة الفنّ

وثائقيّات العزلة المنزلية

في مقابل ندرة الأفلام الروائية الجيدة، تُقدّم «نتفليكس» أفلاماً وثائقية تُعتبر الأهمّ إنتاجاً واشتغالاً ومعالجة، واستخداماً للتقنيات

نديم جرجوره

في عزلة لبنانية يفرضها تفشّي كورونا، وعجز السلطات المحلية عن إدارة أزمة يُسبّبها الوباء وتفشّيه؛ وفي أسوأ أزمة اقتصادية .اجتماعية يُعانيها لبنانيون كثيرون رغم صمت غالبيتهم الساحقة عن تلك المعاناة، ورغم رضوخ غالبيتهم الساحقة لسطوة قبيلة أو طائفة أو مذهب؛ يلجأ البعض إلى منصّات ومواقع وشاشات، يُفترض بها أنْ تمنحه شيئاً من متع بصرية، لن يحصل عليها دائماً، لأسباب إنتاجية غالباً. منصّات ومواقع وشاشات تُحيل الراغب فيها إلى عناوين ومواضيع وحكايات، يقلّ فيها الكوميديّ السليم، فالعنف طاغٍ في بلدان ومجتمعات، كما القهر والألم والخراب والانكسار والخيبة. هذا حاصلٌ هنا وهناك، الآن وكلّ آن، فالوباء سببٌ، والنهب اللبنانيّ المنظّم سببٌ أيضاً. لكنّ بشاعة أقوال لبنانية تزيد بؤس الفرد وشقاء الراهن، لشدّة بهتانها وكذبها وافتراءاتها وتشويهها حقائق ووقائع، إنْ يكن مطلقوها سياسيون أو حزبيون أو أمراء طوائف وأسياد قبائل و«أبطال» حروب عبثية في داخل لبناني مهترئ ومعطّل. منصّات ومواقع وشاشات تطرح أسئلة تتكرّر منذ تفشّي كورونا وتبعاته، من دون بلوغ حدٍّ أدنى من إجابات وافية، وهذا أفضل، فالحسم يُعطّل كلّ نقاش مطلوب لمزيدٍ من التواصل والفهم والوعي والمعرفة والإدراك.

الأمثلة كثيرة. لكنّ أمراً لافتاً للانتباه تُثيره «نتفليكس» منذ أعوام، وشدّة حضوره الآن تدعو إلى تساؤلٍ عنه: إنْ تكن أفلامٌ روائية عدّة، خاصّة بتلك المنصّة الأميركية (إنتاجاً بالدرجة الأولى)، معقودة على تشويق وجنس وتفاصيل عاديّة لا جديد فيها ولا مُفيد، سينمائياً وجمالياً ودرامياً؛ فإنّ للوثائقيّ المُنتج بفضلها أولوية جماليّة، تُبهر العين والعقل والانفعال معاً، لمواضيعها المهمّة، ولأنماط اشتغالاتها الفنية والتقنية، ولتمكّنها من إعادة صوغ المشهد/ الحكاية/ سيرة الشخصية بتخييل سينمائيّ مناسِب للمادة الأصليّة. توثيق يلتزم «قواعد التلفزة» (إنْ يصحّ التعبير) في إنجاز الوثائقيّ، لكنّه . في الوقت نفسه . منفتحٌ على السينمائيّ والسرديّ، ومرتكزٌ أحياناً على شخصيّة أخرى، غير تلك الأساسية في القصّة والفيلم، لسرد وقائع عبر بحثٍ توثيقيّ تاريخيّ غير مقيّد بشيء، إلى حدّ بعيد.

الشخصية الأساسيّة حاضرةٌ أساساً، وإنْ يمرّ وقتٌ (طويل أو قصير) على وفاتها، أو على الأحداث المختارة لسرد تفاصيلها. فالشخصية المرافقة للسرد والتنقيب ترتبط، أحياناً، بالشخصية الأساسيّة عاطفياً أو عقائدياً أو أخلاقياً، فتتوغّل في الماضي والأرشيف والتفاصيل المخبّأة هنا وهناك، وتذهب إلى وثائق وصُور وتسجيلات، وتستعين بأفرادٍ أحياء لهم ارتباطٌ ما بالقضية/ الشخصية، لصوغ مشهدٍ بصريّ ينتقي من السينما ما يدعم وثائقيّته، ويجعل الوثائقيّ حيّزاً بصرياً لفهم ومعرفة واطّلاع، أو لمزيدٍ من الفهم والمعرفة والاطّلاع. الأمثلة الوثائقية متنوّعة، كتلك المتعلّقة بالروائيّ المُنتج بأموال «نتفليكس»، أو الذي تشتري المنصّة حقوق عرضه على شاشتها. للوثائقيّ أولوية، متأتية غالباً من التطوّر الفكري والثقافي والفني والإنتاجي والتقني الذي يعرفه الوثائقيّ منذ أعوام. تمكّنُ المهتمّ من الحصول على ما يبتغيهُ من معلومات أرشيفية بسهولة أكبر من السابق، عاملٌ أساسيّ في توفير متطلّبات تجديدية في إنجاز وثائقيّات متحرّرة من المفهوم الكلاسيكي التقليدي للتسجيليّ القديم. استعادة وثائقيات تأكيدٌ على هذا: «من قتل مالكولم أكس؟» (2020) لراشيل دُرْدْزن وفِل برتلسن («العربي الجديد»، 17 يونيو/ حزيران 2020)، و«القاتل في الداخل: عقل آرون إرناندير» لجينو ماكدِرْمت («العربي الجديد»، 27 يناير/ كانون الثاني 2020)، و«مصنع أميركي» (2019) لجوليا رايكرت وستيفن بغْنار، و«مدينة الخوف: نيويورك ضد المافيا» (2020) لسام هوبكنس (موسم واحد لغاية الآن، في 3 حلقات، يُعرض على شاشة «نتفليكس» منذ 22 يوليو/ تموز 2020)، الذي يروي تفاصيل سيطرة العائلات المافياوية الـ5 على نيويورك، في سبعينيات القرن الـ20 وثمانينياته تحديداً: غامبينو وكولومبو وبونانّو ولوكيزي وجينوفيزي. تفاصيل وصُور ولقاءات مع مافياويين وعملاء فدراليين وباحثين، تستعيد مرحلة ثريّة للغاية بالنسبة إلى عائلاتٍ، تعجز مؤسّسات أمنية عدّة عن مواجهتها، قبل سقوطها المدوّي لاحقاً.

الفيلم الوثائقيّ يتطوّر فكرياً وثقافياً وفنياً وإنتاجياً وتقنياً

في السلسلة الوثائقية التلفزيونية القصيرة هذه، تختفي الشخصية المحورية، لغلبة أفرادٍ معنيّين بالمسألة مباشرة، فهم أحياء، وهم الأقدر على تبيان وقائع مرحلة مليئة بالعنف والأرباح المالية الكبيرة (تتراوح أرباح العائلات المافياوية تلك، في الفترة المذكورة أعلاه، بين 60 و100 مليار دولار أميركي سنوياً). عملاء فيدراليون يروون حقائق، وإنْ يكن بعضها سلبياً لهم، إذْ يعترفون أنّ عجزاً يُصابون به إزاء مطارداتهم العائلات، وإزاء إمكانية ربط «الجنود» بـ«عرّابيها» ورؤوسائها، قبل تمكّنهم من اختراقها، والبدء بتفكيكها، أو تخفيف حدّة سطوتها. صُور وتسجيلات ومقاربات بصرية تمنح السلسلة الوثائقية جمالية التوليف الذي يُعيد ابتكار المشهد وفقاً لواقعيّته.

كلّ وثائقيّ، و«مدينة الخوف» أجدد تلك الوثائقيات، يستحقّ معاينة نقدية مستقلّة، لما فيه من معطيات توثيقية واشتغالات بصرية مهمّة. هذا يختلف كلّياً عن غالبية الأفلام الروائية، العادية أو الأقلّ من العادية أحياناً، التي تُصدرها «نتفليكس» بين حينٍ وآخر؛ من دون تناسي ندرة الأفلام الروائية المهمّة والمثيرة لسجالات نقدية سوية.

زعيم عائلة غامبينو بول كاسْتلّانو بنظّارتيه الطبيّتين (إيفون هامْساي/ Getty)

«المير»: ذاكرةٌ شيوعيّ في صورة أكبر

يُنجز جان رطل وثائقياً تقليدياً عن شخصية لبنانية غير تقليدية. يلجأ إلى ذاكرة حيّة، يُراد لها تغييب قسري، لكنّها تنجح في النفاذ من كلّ موت وإلغاء. التقليديّ في الوثائقي منبثقٌ من رغبة في بساطة سرد وتوليف واستماع، فالمحتوى أهمّ من جماليّات بصرية تحول، أحياناً، دون تنبّه إلى مضمون، يريده صانع الوثائقيّ أبهى حضوراً وأقدر على جذب مهتمٍّ بمسائل مرتبطة ببيئته وبلده وذاكرته وتاريخه.

أحمد المير الأيوبيّ (1924 . 1979) مناضل شيوعيّ طرابلسيّ (من طرابلس، عاصمة الشمال اللبناني). نموذجٌ لمعنى أنْ يكون المرء إنساناً يلتزم أفكاراً ويعمل على تطبيق ميدانيّ لجزء منها على الأقلّ. مكافح، بالمعنى الأنقى لكفاح يُنظَر له في أدبيات وتفسيرات، لكنّه (الكفاح) مع المير وأمثاله يُصبح نهج حياة وسلوكاً وتعاطياً وتواصلاً وتفكيراً وعيشاً. لهذا، تتواضع مُشاهدة «المير» أمام تواضع شريطٍ غير مدّعٍ وغير متشاوف وغير تنظيري، وهذا عائدٌ على الأرجح إلى صفاتٍ حقيقية يتمتّع بها المير نفسه في حياته المنتهية باغتياله أمام منزله، في 13 يونيو/ حزيران 1979، وبعض تلك الصفات واردٌ في كلام أناس يعرفونه جيداً، فيقولون عنه بعضاً منه أمام كاميرا جان رطل، في فيلمٍ يتمتّع بصفة الشهادة البصرية الموثّقة، وإنْ يغلب على التوثيق كلام أناس، يتورّط كثيرون منهم في متاهات الحرب الأهلية اللبنانية (1975 . 1990) وما بعدها من سلمٍ أهليّ مرتبك ومُشوّه، والتورّط عسكريّ وسياسي وتنظيريّ.

وفرة المتحدّثين عن المير مُسيئة، إلى حدّ ما، لفيلمٍ يريده صانعه شهادة عن فردٍ، انطلاقاً من أهمية توثيق اختبارات أفرادٍ يعملون في صفوف جماعات، وغالبية تلك الجماعات تُلغي الفرد لصالح حزبٍ أو مجموعة أو بيئة. لكنّ أفراداً كثيرينَ يُحدثون فرقاً في حراكٍ أو حربٍ أو تحدّيات، ما يستدعي توثيقاً (مكتوباً أو بصرياً) لسِيَرهم وحكاياتهم، بدلاً من إلغائهم في بيئاتٍ وأحزاب وجماعات ينتمون إليها. المير أحدهم، وممّا يُقال عنه في وثائقيّ جان رطل جزءٌ من سيرته وحكايته، مع أنّ بعض الظاهرين فيه مرتبط بسياساتٍ غير متوافقة، ربما، مع حيوية نضال فرديّ، يرى صاحبه في العمل الميدانيّ المباشر درباً أصيلاً لتحقيق هدفٍ، أو لإشباع رغبة في عمل حقيقيّ.

قيمة «المير» كامنةٌ في كونه توثيقاً بصرياً يبدأ بالفرد، وينفلش سريعاً على منطقةٍ وحزبٍ وشخصياتٍ وأحداثٍ وحالاتٍ، بألسنة معارف ومُقيمين ومُطّلعين، يُفترض بها أنْ توثّق وتُبَثّ وتُنشَر وتُناقَش. السينما تنسحب قليلاً، فالأهمّ كامنٌ في السيرة، المعروفة وغير المعروفة، للمير نفسه. الصُور الفوتوغرافية قليلة، فشهادات معارفه وأصدقائه ورفاقه طاغيةٌ لتشكيل صورة أكبر من الفوتوغرافيا، وأوسع من حكاية.

ندي...

جان رطل: سيرة المناضل أهمّ من شكل الوثائقيّ (فيسبوك)

أقوالهم

خلال عملي معه في «بنات وسط البلد» (2005)، ثم في الأعوام التي جمعتنا فيها الحياة والمهرجانات واللقاءات، تعلّمت فنون التعامل مع محمد خان. كانت تجمعنا صداقة حقيقية، واحترام خاص لموهبته وطاقته، التي كانت تفوق أغلب المخرجين الأصغر سنّاً منه.

هند صبري

هناك 3 أعداء للسعادة: 1-) نحن، إذْ لدينا قدرة اتّخاذ قرارات خاصة بنا وعدم الاهتمام بما يعتقده الآخرون عنّا. 2-) الأسرة. 3-) المجتمع. في كلّ مرة، يتعيّن على امرأة تريد تغيير شيء ما في حياتها، أو تقرّر شيئاً مهماً، أنْ تواجه هذه العقبات. نورا (نورا تحلم) قرّرت اختيار سعادتها رغم نفسها وعائلتها.

هند بوجمعة

في هوليوود، كنتُ مخرجاً فقط، لا يحقّ لي التغيير في النصّ، والهدف تحقيق فيلم رومانسي، يحاكي نساء ناضجات لا يعانين العقد (صالون هدى). هناك، لديهم جمهور معيّن يخاطبونه. كتابة النصّ لأجلهم لا لأجلي. في «الجبل بيننا»، كنتُ مخرجاً. لم يتدخّل أحد بعملي خلال التصوير. شعرتُ ماذا يعني أنْ أكون مخرجاً لا علاقة له بالكتابة. دوري إدارة الممثّلين وفريق العمل.

هاني أبو أسعد

أفعالهم

Spycies، فيلم تحريك لغييوم ايفرنَل، بأصوات موسيو بولْب ودافي موريه و**كارن ستارسّمان** (الصورة): عميلان سرّيان متمرّدان ووغدان (فلاديمير وهكتور)، يتحمّلان مسؤولية العالم ومصيره بعد سرقة موقع سرّي للغاية، إذْ يتورّطان في مهمّة إنقاذ الكوكب من تهديدات مناخية، ويبدآن تنفيذ المهمّة بكل ما لديهما من قدرة ووعي.

Ema، لبابلو لارّان، تمثيل غايل غارسيا برنال و**ماريانا دي جيرولامو** (الصورة)، وسانتياغو كابْريرا: إيما راقصة شابّة متزوّجة من مُصمِّم رقصات مشهور، تقضّ مضجعها عواقب متأتية من عملية تبنٍّ لم تُنجز بشكل عادي وطبيعي. لذا، تُضطرّ في لحظة ما للبدء بتغيير نمط حياتها، لعلّها تُنقذ نفسها من أزمةٍ خانقة.

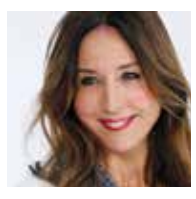

Adorables، لسولانج سيكورال، تمثيل **إلزا زيلبرشتاين** (الصورة)، وإيوني ماتوس: ايما وفيكتور والدا ليلا، التي تتحضّر للاحتفال بعيد ميلادها الـ14. لكنها تعاني من أزمة المراهقة في مرحلة الانتقال من طفولة مثالية إلى مراهقة لا تُحتَمل. يحاول فيكتور تخفيف التوتّر، لكن الحرب مندلعة بين الأم وابنتها.

أخبار

◆ أعلنت إدارة «مهرجان عمّان السينمائي الدولي . أول فيلم» أنّ الدورة الأولى ستُقام بين 23 و31 أغسطس/ آب 2020، في العاصمة الأردنية، بإشراف «الهيئة الملكية الأردنية للأفلام» وتنظيمها، بالتعاون مع MAD Solutions (القاهرة). وبحسب بيانٍ صادر عنها، فإنّ الهدف من المهرجان يكمن في «تطوير وتعزيز سينما عربية، تعكس إبداع المنطقة، وتعالج قضاياها الراهنة». وذكر تعريفٌ رسميّ بالمهرجان أنّه «تقديراً لمختلف المواهب المنخرطة في صناعة الأفلام» سيُكرَّم عاملون في قطاعاتٍ سينمائية مختلفة، كالإخراج وكتابة السيناريو والمونتاج والتصوير والتمثيل. يُذكر أنّ التنافس على الجوائز محصورٌ بصانعي الأفلام العربية (الروائية والوثائقية، الطويلة والقصيرة)، بينما الفئة غير التنافسية تشمل «الأفلام الأولى لمخرجين غير عرب من مختلف أنحاء العالم». أما البرنامج النهائيّ للدورة الأولى تلك، فسيُعلن قريباً.

◆ صدر كتاب «الإرث الفلسطيني المرئي والمسموع . نشأته وتشتّته والحفاظ الرقمي عليه: دراسات أولية وتطلّعات مستقبلية»، تأليف وترجمة عن الألمانية لبشّار شموط (يوليو/ تموز 2020، 200 صفحة)، عن «مؤسّسة الدراسات الفلسطينية» في بيروت. ويتناول الكتاب الإرث المرئي والمسموع لفلسطين «بهدف المساهمة في الحفاظ عليه بالوسائل الحديثة، وتوثيق الذاكرة الجماعية الفلسطينية المُهدَّدة دائماً، في ظلّ الأوضاع السياسية والمعيشية الصعبة للشعب الفلسطيني». وهذا كلّه في 3 أبواب أساسية: تاريخ نشوء تلك المواد؛ وأماكن وجود المجموعات المتناثرة والمتشتّتة في أرشيفات العالم، وكيفية الوصول إليها؛ وأخيراً: بعض الأساسيات التقنية المعمول بها في مجال الأرشفة الرقمية الحديثة للمساعدة في إرشاد العاملين في هذا المجال، في العالم العربي. يُذكر أنّ شموط متخصّص بهندسة الصوت وتسجيل الموسيقى، أنتج تسجيلات موسيقية مختلفة، وتخصّص بالأرشفة الرقمية للإرث المرئي والمسموع.